المبحث التاسع

حُسْنُ التعليل

فى الأدب العربى

اهتم الشعراء والكتاب بهذا اللون البلاغى وذلك الصبغ البديعى ، لما به من جليل الخطر وعظيم الأثر فى الأدب العربى فهو يدل على رسوخ ملكة الإبداع فى فن القول لدى الكتاب والشعراء ، وقد أشار إلى ذلك الإمام عبد القاهر الجرجانى فى قوله : « وهو أن يدعى فى الصفة الثابتة للشىء أنه إنما كان لعلة يصفها الشاعر ويختلقها إما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح أو تعظيم أمر من الأمور »[1] .

ولقد كان لهذا اللون أصالته فى لغة العرب الخالدة خلود القرآن الكريم ، وذلك أننا عندما ننظر مثلا فى قول امرىء القيس :

وما جبنت خيلى ولكن تذكرت مرابطهـــا من بر بعيص وميسرا

نجد أن امرأ القيس فى هذا البيت قد اعتذر ، وذلك بأن جعل أصحابه غير منهزمين لجبن أدركهم أو ضعف استولى عليهم ولكنهم ذكروا الوطن والأهل، وقيل: إن هذا الاعتذار عليه لا له[2] .

وقد أطلق العلامة ابن رشد على مثل هذا اللون اسم« التصديق الصناعى»[3] ، لما له من أثر فى الإقناع البلاغى ولكن بعض الباحثين المحدثين ذكر أن حسن الاعتذار يعد اللبنة الأولى ، والجذر الأساسى بل والمادة الخام لوجود « حسن التعليل » وتطوره ونموّه إلى الصورة التى هو عليها الآن عند علماء البلاغة .

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٩ .

(٢) ينظر ديوان امرىء القيس ص : ٧٠ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طـ ثانية دار المعارف .

(٣) ينظر تلخيص كتاب أرسطوطاليس فى الشعر ص : ١٦١ لابن رشد ، تحقيق : د. محمد سليم سالم ، القاهرة سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

وذلك لما فى حسن الاعتذار : من التماس حجج نظرية تثبت براءة مرتكب النقيصة وإن لم يكن بريئا من ذلك اعتذار دريد بن الصمة عن اشتراكه مع قبيلته فى حرب لم تكن من رأيه حيث يقول :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ومن ذلك أيضـــا اعتذار الفرزدق حين نبا السيف فى يده إذ هم بقتل الأسير فقال :

لم ينب سيفى عن رعب ولا دهش عن الأسيـــر ولكن أخر القدر[1]

وبالبحث والتنقيب فى كتب الأدب والشعر يتضح لنا أن ذلك الصيغ البديعى يعد من أظهر الألوان البلاغية التى راجت وبخاصة فى أدب الأندلسيين بعد السجع ، إذ لاقت تلك الألوان إقبالا من الأدباء واكتسبت منهم الأشياع والأنصار ، حيث أولعوا به وأكثروا من استخدامه حتى صـــار مذهبا من مذاهبهم ، ومـــن هـــؤلاء ابن خفاجة الأندلسى ، حيث يصف جبلا اعترضه فيتحدث قائلا على لسانه :

---

(١) يراجع فى ذلك اعتذارات النابغة ، وقد أشار هذا الباحث أيضا إلى أن حسن التعليل فى تطوره إلى الصورة المثلى التى هو عليها الآن قد مر بخمسة أطوار : **أولا : حسن الاعتذار** · كما مر ، **والثانى : حسن التعليل المعلق** : وهو الذى يدعى فيه الشاعر علة غير حقيقية ولكن نفسه وضميره لا يساعدانه على ذلك خوف الكذب ، فيحتال لذلك بحيلة لطيفة هى إدخال الشرط وما يفيده من التعليق كقول النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصـــائب
جوانـــح قد أيـــقن أن قبيـــــله إذا ما التقى الجيشان أول غالب

وقد أفدنا أن ذلك يعد مما يلحق بحسن التعليل ·

الثالث : حسن التعليل الظنى : وهو ما دخله الشك والريب ، كقول جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وذلك يعد أيضا مما يلحق بحسن التعليل ·

الرابع : حسن التعليل الاحتمالى : وهو الذى لا تكون عبارته نصا فى الموضوع كقول النجاشى :

وما سمى العجـــــلان إلا لقوله خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

الخامس : حسن التعليل الحقيقى بأقســـامه الأربعة · ينظر حســـن التعليل ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ·

وما خفق أيكى غير رجفة أضلع ولا نوح ورقى غير صرخـه نادب
وما غيض السلـوان دمعى وإنما نزفت دموعى من فراق الصواحب

وكان هذا اللون شائعا فى أشعار الأندلسيين جميعا وقلما خلا منه شعر شاعر[1].

وممن أغرم كذلك بهذا اللون - وهو من بين من سلكوا طريقة القاضى الفاضل الشاعر ابن نباته المصرى ، فقد أكثر منه كثرة غامرة حتى بلغ فيه شأوا بعيدا ، من ذلك قوله :

وما سمى الغيث الهتون سحابة سوى أنه من حجلة يتسحب

وقوله :

شكرا لأقلامك اللائى جرت لمدى فى الفضل أبقى لباغى شأوه التعبا
حلت وأطربت المصفى وحزت بها فضل السباق فسماها الورى قصبا

فهو يعلل لتسمية الأقلام قصبا بعلل خيالية ثلاث :

بالحلاوة وقصب السكر حلو ، وبالإطراب والقصب المثقب مطرب ، وبالسبق بها جميع الأنداد فهى قصب السبق[2] .

ومن ذلك قول ابن عمار وقد أخرج من الأندلس :

علَىَّ وإلا ما بكـاء الغـمائم وفىّ وإلا ما نياح الحمـائم
وعنـىّ أثار الرعد صرخة طالب لثأر وهزّ البرق صفحة صـارم
وهل لبست زهر النجوم حدادها لمثلـى أو قامت له فى المآتم
وهل شققت هوج الرياح جيوبها لغيرى أو حنَّت ضين الروائـم

فعلل هذه الأشياء غير ظاهرة ، ولكن الشاعر علل بأن ذلك كله إنما كان بسببه[3] .

وكذلك ما قاله ابن حمديس الصقلى فى الخال حيث أجاد وأحسن :

يا سالبا قمر السماء جماله ألبستنى فى الحزن ثوب سمائه

(١) ينظر : الصبغ البديعى ص ٣٥٤ .
(٢) ينظر : السابق ص : ٣٦٨ .
(٣) ينظر : ص ٥٦٦ من كتاب طراز الحلة وشفاء الغلة للرعينى.

أشعـــلت قلبى فارتمى بشرارة علقَتْ بخدّك فانطفت فى مائه

فالشاعر علل الخال بأنه شرارة نار قلبه وقعت فى ماء خده فانطفت ، وقوله :

« ألبستنى فى الحزن ثوب سمائه » يعنى لونا أزرق ، وهى عادة أهل الأندلس إذا حزنوا لبسوا الثياب الزرق[1] .

وقال ابن نباتة أيضا :

لم يزل جوده يجور على الما ل إلى أن كسا النضار اصفرارا

فقد علل لاصفرار النضار بأنه من سبب ما أصابه من الألم من شدة جور جوده على المال[2] وقال ابن الرومى :

وغـــزال ترى علـــى وجنتـــيه قطر سهميه من دماء القلـــوب

جرّحته العيون فاقتـــص منـــها بجوى فى القلوب دامى الندوب[3]

وقد سبقه أبو تمام إلى هذا المعنى فقال :

أدميت باللحظات وجنته فاقتص ناظره من القلب[4]

وقال ابن الرومى أيضا :

أما ذكاء فلم تصفر من فرق إلا لفرقة ذاك المنظر الحسن

فقد جعل علة اصفرار الشمس أنه إنما كان بسبب الحزن على فراق المنظر الحسن[5] .

* * *

(١) ينظر : السابق ص ٥٦٨ .

(٢) ينظر : البلاغة التطبيقية ص : ١١٣ . حسن علوان ، محمد أحمد برانق ، مطبعة المعارف ١٩٣٧ م

(٣) المثل السائر ٣ / ٢٤٠ ابن الأثير تحقيق د. بدوى طبانة ، التبيان ص٣٢١ الطيبى .

(٤) السابق .

(٥) البلاغة التطبيقية ص ١١٣ . حسن علوان ، محمد أحمد برانق .

وقال بعض الأندلسيين :

قالوا الحبيب شكا جعلتُ فداءه رمدا أضر بعيـــنه كالعندم

فأجبتهـــم : مازال يفتك لحظه فى مهجتى حتى تلطخ بالدم

فالشاعر قد جعل الحمرة التى تظهر فى عين الحبيب من دم محبه لا من أثر الرمد الذى أصاب العين ·

وقال الأرجانى :

أبدى صنيعك تقصير الزمان ، ففى وقت الربيع طلوع الورد من خجل

الشاعر هنا أيضا جعل السبب حمرة الورد هو الخجل من تقصير الزمان وتلك علة غير حقيقية وقال بعضهم فى معذَّر :

ومعذر رقت حواشـى وجهه فقلوبنـــا وجدا عليـــه رقاق

لم يكس عارضه السواد وإنما نفضت عليه سوادها الأحداق

فقد علل سواد العذار بأنه من سواد العيون وتلك أيضا علة غير حقيقية ·

وقال بعضهم أيضا فى الشقائق :

ورياض من الشقـائق أضحت يتهادى بها نســـيم الرياح

زرتها والغمام يجلدُ منهـــا زهرات تفـــوق لون الراح

قلت ماذنبها ، قال مجيبـــا سرقت حمرة الخـــدود الملاح[1]

فالشاعر علل نزول الغمام فوق الزهر بأنه جلد لها عقابا على سرقتها حمرة الخدود ·

وفى العصر الحاضر قالت السيدة عائشة التيمورية أيضا :

علام تصـــــدنى وأراك دوما تميل مع الهوى يا غصـــــن بان

رويدك قد قتلت من التصـــابى وذاك دمى بأطراف البنـــــان[2]

وقال الشيخ : محمد الخضر حسين رحمه الله تعالى : ومما صنعت على النمط وقد أخذ البَرَد يتساقط فى حديقة :

---

(١) ينظر : البلاغة التطبيقية ص ١١٢ ·

(٢) ينظر : المرشد فى علوم البلاغة ٢ : ٢٠٤ : ٢١١ محمد عبده طلبة ، محمد رزق الدهشان ·

هزَّ النسيم غصون الروض فى سحر كـــما يهز بنانُ الغـــادة الوترا
لذَّ الخفيف على أذن الســـحاب أما تراه يحثو على أدواحـــها دررا

وقلت وقد أخذت الريح تنسف فى روض :

قام هذا الروض يشدو مادحا بلسان البلبل الزاهى سحـابا
وتمادى غاليـــا فى مدحـــه فحثت فى وجهه الريح ترابا

وقلت فى حمرة شفق :

قتل الدجى هذا النهار ودسَّه تحت التراب مضـــرجا بدمائه
فخذوا من الشفق الشهادة إنه لطْخ من الدم نال ذيل ردائه[1]

وقال الشاعر أحمد شوقى :

أبا الهول ويحك لا يســـتقلُّ ـل مع الدهر شىء ولا يحتقـر
تهزأت دهرا بديك الصـــبا ح فنقّر عينيـــك فيمـــا نقر
أسال البياض وسلَّ الســـواد وأوغـــل منقـــاره فى الحـــفر

البيت السّابقُ تمهيد لما بعده ، والمقصود بديك الصباح : الزمن ، والعلاقة بين الديكة وبين الصباح من ناحية صياحها فيه معروفة وهذا تخييل شعرى جميل ومن بارع حسن التعليل ، وذلك بأن جعل الشاعر عبث الدهر بأبى الهول وتشويهه خلقه حتى أسال بياض عينيه وسل سوادهما هو هزء بأبى الهول به وسخريته منه وعدم اكتراثه له ، ثم تعبير عن الدهر بديك الصباح فيه ما فيه[2] .

ثانيا : حسن التعليل فى النثر :

وحسن التعليل لم يقتصر على الشعر فقط بل شارك النثر فيه أيضا ، وذلك أن المنثور من الكلام يشارك الشعر فى اشتماله على الصور الخيالية ، حتى فشا هذا التعليل فى نثرهم وازدهر فى أسلوبهم ودل على ذوق لطيف وحسن شفيف ، وخيال مبتكَر وذهن مقتدر[3] ، وإن كان نصيب الشعر من تلك العلة الشعرية أوفر وهو بها

(١) ينظر : الخيال وأثره فى الشعر العربى : ص : ٢٨ الشيخ محمد الخضر حسين .
(٢) ينظر : الشوقيات ١ / ١٣٥ . ط المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٧٠م .
(٣) ينظر : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ٦ / ٤٠٧ . محمود رزق سليم . ط وزارة الثقافة والإرشاد القومى بمصر سنة ١٣٨١ هـ ١٩٦٢ م .

أعرف ، كما يمتاز - الشعر - بأحد أنواع التخييل وهو ما لا يتوخى فيه صاحبه وجه الحق ، وإنما يقصد إلى اختلاب العقول ومخادعة النفوس إلى التثبت بغير الحق[1] .

ومن أمثلة حسن التعليل فى النثر قول بشار بن برد : الحمد لله الذى ذهب ببصرى ، فقيل له : ولم يا أبا معاذ ، فقال : لئلا أرى ما أبغض[2] .

وكذلك قول شهاب الدين الحلبى فى وصف الخيل : « ومن أدهم حالك الأديم ، حالى الشكيم ، له مقلة غانية وسالفة ريم ، قد ألبسه الليل برده ، وأطلع بين عينيه سعده ، يظن من نظر إلى سواد طرته وبياض حجوله وغرته ، أنه توهم النهار نهرًا فخاضه ، وألقى بين عينيه نقطة من رشاش تلك المخاضة»[3] .

فحسن التعليل باد فى قوله : « ألبسه الليل برده » فهو يعلل سواده بأن الليل أعاره ثيابه وكذلك فى قوله : « توهم النهار نهرًا فخاضه ، وألقى بين عينيه ... الخ » وهما تعليلان لا تعليل واحد ، وكلاهما فى غاية الإبداع ودقة الاختراع ، مع السهولة والوضوح ، فهو يعلل وجود الحجول البيض فوق حوافر الأدهم ، ووجود الغرة فى جبهته بأن الأدهم توهم النهار نهرا ، وهو تخيل أو توهم لطيف استطاع به الكاتب المتمكن من نقل خيال السامع من جريان الأدهم فى النهار إلى تيار النهر يخوضه بأقدامه فأحاط تيار الماء بحوافره وطارت رشاشة منه إلى جبهته فتركت به غرة[4] .

وكذلك قول الأديب الأستاذ مصطفى لطفى المنفلوطى - رحمه الله - : الأصدقاء فى هذا الزمن يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر ، فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير . وكذلك قولهم : إنما تهتز الحقول بالنبات لتلهم الفلاّح النشاط وتعزيه عما هو فيه من فرط النكبات[5] .

إلى غير ذلك العديد من الأمثلة والشواهد المزجاة فى كتب الأدب والأشعار

---

(١) ينظر : الخيال وأثره فى الشعر العربى ص ١٢ .

(٢) ينظر : حسن التعليل ص : ٣٣ ، ٣٤ .

(٣) حسن التوسل ص ١٤٢ شهاب الدين محمود الحلبى ط الوهبية بمصر ١٣٥٥هـ .

(٤) ينظر : المرشد فى علوم البلاغة ٢ / ٢١١ محمد عبده طلبه ، محمد رزق الدهشان مطبعة سعد بالفجالة ١٩٣٧ م .

(٥) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٤٧ .

والبلاغة والتى تدل على أصالة هذا الفن ، ومدى الإبداع فيه عند الكتاب والشعراء فى الأدب العربى .

وهذا الفن بحاجة دائمة إلى الفكر المتجدد والثقافة النابضة والجرأة فى الرأى إلى جوار ما يحمل من حبكة فنية - وقد أشار الإمام عبد القاهر الجرجانى إلى ما أحدثه المبدعون فى هذا اللون البديعى من فنون وطرائف فقال : وقد اتفق للمتأخرين من المحدثين فى هذا الفن نكت ولطائف وبدع وطرائف لا يستكثر لها الكثير من الثناء ولا يضيق مكانها من الفضل عن سعة الإطراء » .

وبذلك يكون قد تبدى لنا بالحسن التعليل أو « التعليل المخيل » من أثر فى فنون الأدب وألوانه ، وماله من كبير الأثر فى النفوس ، وأنه ليس - كما يُظنُّ - حلية من حلى البلاغة أو طلاء خارجيا لها ، وإنما هو منها فى الصميم لحاجة المتأدبين إليه ، ولما له - كذلك - من بديع الأثر فى طلاوة الكلام وبهائه .

* * *